التمهيد

(اللون والأدب)

تتداخل الفنون فيما بينها لِتُفصح عن علاقاتٍ أدبيةٍ واسعة، تُدركُ عن طريق البحث والاستقصاء والتتبع لمنحى الظاهرة، يلي ذلك الذوق الأدبي والحصيلة المعرفية والخبرات الجمالية في استنطاق المعاني الجميلة من خلال تلمّس الجدة، والطرافة، والوضوح، ومقارنتها بالمشاعر والأحاسيس والانفعالات التي تخدم النصّ الأدبي بصورةٍ إيجابية.

تستقرّ تلك المعاني في ذاكرة الشاعر فتنتج قيماً إبداعية راقية تدفعه إلى إقامة علاقات أدبية ترتبط بعضها مع بعض عن طريق التأثر والتأثير؛ لأنّها تستند في مجملها على تجارب إنسانية عامة، يبتغي المبدع من خلالها إثارة العواطف والنزعات الإنسانية الصادقة فيحرّكها للحصول على المتعة الجميلة للأشياء.

ولمّا كان (اللون) أحد أبرز العناصر الجمالية في الفنون، إذ يشكّل حضوراً واسعاً يمكن أن يغيّر مسار الشكل الإبداعي سلباً أو إيجاباً؛ فقد كان موضوعاً مهماً، له أولويته وسلطته على مختلف الفنون، ومن بينها الشعر، فهو يشكّل مادة ثرةً، ومعيناً زاخراً تَستمدّ منه الإيحاءات والرموز أبعادها الجمالية، فتصبح به كياناً إبداعياً له تأثيره الكبير والفاعل في رسم معالم النصّ وتوجيه خطابه بما يحمله من قدرة على تحقيق التناغم والانسجام في أيّ مادة يدخل في تكوينها، سواء أكانت فنّاً شعرياً أم غيره من الفنون الأخرى.

وتداخل الشعر مع الرسم يأتي من ناحية فنية جمالية، فكلاهما يؤسس إبداعاً فنياً، يلتقي بعضه ببعض في معظم الأحيان. فالشاعر يرسم المشهد بألفاظٍ لونية، فيما يسعى الرسام إلى تصويره رسماً بالألوان، لا الكلمات(١).

غير أنّ موضوع الدراسة يقتضي الوقوف على إمكانيات اللون في الكشف عن الدلالات العميقة للنصوص الشعرية، فكانت الألوان إحدى وسائل الشاعر في التعبير عن أحاسيسه وما يعتريه من مشاعر تتفاوت حدّتها تبعاً لطبيعة الموقف الشعري والحالة التي تقتضي من الشاعر البحث في كيفية الإفصاح عن ذاته من خلال استعماله للألوان.

ولا شكّ في أنّ أداة الشاعر في هذا المضمار هي اللغة بكلّ مستوياتها، يدعمها الخيال المبدع الخلاّق بما يرفده من صورٍ حسية بارزة يكون اللون محورها وأساسها.

فللون إمكانية خلق التوافق والانسجام، أو التنافر في بعض الأحيان، إذ إنّه معيارٌ فنيٌّ يمكن أن يبعث في الصورة الحركة والحياة، أو أن يسلبها كلّ جمالياتها.

فإذا وفّق الشاعر في توظيف اللون توظيفاً صحيحاً، فقد أمسك بعنان الصورة يسيّرها أنى يشاء، وهو بذلك ينجح في الغوص على الدلالات العميقة للمعنى الشعري، أمّا التوظيف السيئ، فهو كفيل بسحب أحد العناصر الأساسية المهمة في رسم الصورة الشعرية، التي هي خلاصة العمل الإبداعي وغايته المثلى.

فضلاً عن ذلك فـ((إنّ توظيف اللون في الشعر يحتاج إلى وعيه وإدراك طبيعة تشكّله في الطبيعة أولاً، وفي فنّ الرسم بنماذجه وأشكاله وحدوده ثانياً، ليتمكّن الشاعر بعد ذلك من الإفادة من طاقاته هذه وتحويلها إلى حقل الشعر))(٢).

شكّل اللون لدى الشعراء ابتداءً من عصر ما قبل الإسلام وحتى وقتنا الحاضر، مصدراً ثرّاً ومادة قيّمة مكّنتهم من توسيع فضاءات الدلالة الشعرية؛ لكي

(١) ينظر: الشعر والرسم، فرانكلين ر. روجرز، ترجمة: مي مظفر: ٥٣.
(٢) اللون لعبة سيميائية، بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري، د. فاتن عبد الجبار جواد: ٢٨.

تكون عاملاً إضافياً يوفّر المزيد من الإيحاءات الرمزية التي تعمل على تقوية بنية النص، فكانت الألوان وما زالت تؤثر في اختزال ((معاني رمزية بالغة الخطورة، باعتبارها منظورات فيزيائية تستجيب لتطلّعات الذات الراغبة في الكشف عن طبقات الأعماق...))[1].

وظّف الشعراء اللون في أشعارهم، وأدركوا ما للّون من أهمية بالغة في رسم الصورة الشعرية، فأفادوا من الدلالات التعبيرية للألوان على اختلاف أصنافها، سواء أكانت تلك الدلالات مرتبطة بالموضوعات الشعرية، أم بالحالة النفسية، أم محاولة الشاعر في التعبير عن ذاته ودواخله، وإحساسه بالراحة حين يرى اللون خير أداة يجسّد من خلالها موقفه ورؤيته للأشياء.

تطرّقت الكثير من البحوث والدراسات إلى توظيف اللون في الشعر الجاهلي، وليس هذا مكان التعريف بها والوقوف عليها، إلاّ ما يقتضي الإشارة إلى أسمائها وأسماء أصحابها إجمالاً[2]، وهذا ما يدعو البحث إلى تتبع الدراسات التي تناولت اللون في العصور الأدبية السابقة لموضوع الدراسة بصورة موجزة.

امتلك اللون سطوته على مخيلة شعراء العصر الجاهلي، وسخّروا مختلف الرموز والعناصر التعبيرية في سبيل تكوين الصورة الشعرية، وإحكام تركيبها،

---

(١) رمزية الألوان في الشعر المأتمي، د. عبد السلام المساوي، مجلة عمان، العدد: ١٠٨، حزيران ٢٠٠٤م: ٣٥.

(٢) من بين البحوث والدراسات التي وقفت على موضوع اللون في الشعر الجاهلي: شاعرية الألوان عند امرئ القيس، محمد عبد المطلب، مجلة فصول، المجلد: ٥، العدد: ٢، ١٩٨٥م، والتعبير عن اللون في الشعر العربي القديم، د. وولف ديتريش فيشر، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد: ٨، صفر ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، وجماليات اللون في شعر زهير بن أبي سلمى، موسى ربابعة، مجلة جرش للبحوث والدراسات، جامعة جرش، المجلد: ٢، العدد: ٢، حزيران ١٩٩٨م، والأداء باللون في شعر سحيم عبد بني الحسحاس، أ. د: محمود عبد الله الجادر، مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية، المجلد: ٢٧، العدد: ٤، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، وتعبيرية اللون في شعر عنترة، جاسم محمد صالح، مجلة جذور التراث، النادي الأدبي، جدة، العدد: ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. أمّا الرسائل الجامعية فمنها: اللون في الشعر الجاهلي، صباح عودة عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، ١٩٩٨م، واللون في شعر الهذليين، كتائب حسن عبود الدوري، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، ٢٠٠٣م.

والأداة المنوطة بنقل هذه الأحاسيس هي العين، بما تُبصره من مدركات حسية مستمدة من الطبيعة، ومشاهدات الشاعر، أو مخيّلته، فالشعر ((ينبت ويترعرع في أحضان الأشكال والألوان، سواء أكانت منظوره أم مستحضرة في الذهن))[١].

شكّل اللون مساحة لا بأس بها في أشعار الجاهليين، وكان الشعراء يستمدّون الألوان من وحي الطبيعة، وما تحويه بيئتهم الصحراوية، لكنّها اعتمدت على النمطية والتكرار في مختلف الموضوعات التي اشتملت على مفردات الألوان، فكرروا صورة الممدوح المتّسمة بالبياض بشكلٍ صريح أو غير صريح من خلال التأكيد على موحيات البياض.

ومثل ذلك ينطبق على شعرهم في التشبيهات الغزلية من ناحية استعمال اللون الأبيض والأصفر، أمّا الشعر الخمري فكان اللون الأحمر يغلب على غيره من الألوان، فيما كان اللون الأسمر مجسّداً في وصف صورة الرمح[٢].

ودلالات الألوان في عصر ما قبل الإسلام كانت بسيطة إذا ما قورنت بالعصور التي تلته، لا سيما العصر العباسي[٣].

وفي العصر الإسلامي والأموي لم تختلف الحال كثيراً عمّا سبق، فكانت مدلولات الألوان تقترب من معاني مثيلاتها في العصر الجاهلي، إلاّ ما يمكن عدّه دخول المعاني الإسلامية إلى فكر الشعراء من ناحية تفضيل بعض الألوان على غيرها، منطلقين بذلك من ورود الألفاظ اللونية في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ففي القرآن الكريم وردت ستة ألوان صريحة، هي: الأبيض، والأسود،

(١) التفسير النفسي للأدب، د. عزّ الدين إسماعيل: ٦٧.
(٢) ينظر في تفصيلات هذا الموضوع: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية)، إبراهيم محمد علي: ٢٦٤ ـ ٢٧٠.
(٣) ينظر: دلالات اللون في الفن العربي الإسلامي، أ. د: عياض عبد الرحمن الدوري: ٤٧.

والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق، وتباينت دلالاتها بحسب مناسبتها في النص القرآني[1].

من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فاطر: ٢٧، وقوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ الحديد: ٢٠، وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ الحج: ٦٣، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ طه: ١٠٢.

أمّا ما ورد من ألوان في الأحاديث النبوية الشريفة فكثير، لذا سأورد بعضاً منها في إشارة إلى دلالاتها المختلفة، تبعاً للمناسبة التي اقتضت قول الحديث.

من ذلك قوله ﷺ: ((إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلاّ كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض))[2]، وقوله ﷺ: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كلّ نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود...))[3]، وفي الحديث الذي روي عن

(١) ينظر: اللون في القرآن الكريم دراسة لغوية نحوية دلالية، نضال حسن سلمان، (أطروحة دكتوراه)، كلية القائد لتربية البنات، جامعة الكوفة، ١٩٩٧م: ٣٦ ـ ٣٨، ودلالة الألوان في آيات القرآن، د. أحمد عطية السعودي، مجلة الحكمة، العدد: ٢٠، ١٤٢١ هـ: ٣٧٢ ـ ٣٨٢، ودلالات اللون في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، د. عياض عبد الرحمن أمين الدوري، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ج: ١، المجلد: ٥٠، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م: ١٣٨.

(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري: ١/ ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٣٧٠.

عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّه قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين[١]، وهو يدل على اللون الأصفر، فقال: ((إنّ هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها))[٢]، وقوله ﷺ: ((من حلف بيمين آثمة عند منبري هذا، فليتبوأ مقعده من النار، ولو على سواك أخضر))[٣].

استمدّ كثير من شعراء العصر الإسلامي والأموي دلالاتهم اللونية على وفق المنظور الذي رسمه التغيير الجديد الذي طرأ على المجتمع العربي آنذاك، وهو بزوغ فجر الإسلام وما حمله من قيمٍ دينية وأخلاقية، وجدت صداها في الشعر، كما كان بيّناً في غير ذلك من مناحي الحياة.

ثم كان بعد ذلك العصر العباسي والأندلسي، وهما يمثلان فترة ازدهار الحياة بمختلف نواحيها، لاسيّما الأدبية، ومن بينها الشعر بكلّ صوره وتشبيهاته وحضوره الراسخ في المخيّلة الإبداعية، على اختلاف مشاربها.

يأتي هذا المزج بين العصرين ـ العباسي والأندلسي ـ نتيجةً لتقارب نمط الحياة من ناحية المدة الزمنية، والمنبع الثرّ الذي يستمدّ منه الطرفان، ممثلاً بالشعر الجاهلي من جهة، والقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من جهة أخرى، ومن ثم الظروف المحيطة بهما وما اشتملا عليه من تطوّر حضاري واسع، شمل كلّ الميادين؛ الثقافية، والحضارية، والاجتماعية.

وممّا لا شكّ فيه أنّ بواعث التطوّر التي اتّسم بها العصر الأندلسي كانت ذات أثر عميقٍ في نفوس الشعراء، فظهر ذلك في أشعارهم، فضلاً عن الفكر المشرقي الذي حملوه معهم حين دخولهم الأندلس، إذ لا يمكن الفصل بين موروثهم، وما تتمتّع

---

(١) العصفر نبات... وهو الذي يصبغ به... وقد عصفرت الثوب فتعصفر. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (عصفر).

(٢) صحيح مسلم: ٣/ ١٦٤٧.

(٣) سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: ٢/ ٧٧٩، ويقول محقق الكتاب (محمد فؤاد عبد الباقي): ولعل التقييد بالأخضر بناء على أنه يستبعد الاختصام بين العاقلين في مثله.

به شخصيّاتهم من أصول تضرب جذورها إلى عمق الثقافة المشرقية، لكنّ تطوّر الحياة، وتغيّر البيئة، كان له الأثر الأبرز في تكوين ملامح الشخصية الأندلسية فيما بعد.

خضعت المفردة اللونية في الشعر الأندلسي إلى شكل من أشكال التجديد، وذلك من خلال استلهام مشاهد الطبيعة التي ألقت بظلالها على شعرية الألفاظ اللونية، فغدت معلماً بارزاً يشار إليه كلّما مرّ ذكر الأندلس، وإن كان بعض الباحثين يرى أنّ الشعر الأندلسي لا يترك أثراً دائماً في النفس بسبب ما يحويه من ألوانٍ مختلفة، وصورٍ وتشبيهاتٍ متتالية[1]، وهو قول مردودٌ بما تشهد عليه نصوص أدبية بقيت علامة فارقة في الأدب الأندلسي، كانت وما زالت ترددها الأجيال إلى وقتنا الحاضر، منها على سبيل المثال لا الحصر، نونية ابن زيدون، وسينية ابن الأبار، ونونية أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس.

((وإن يكن الشاعر العباسي قد وضع إحدى رجليه على تراثه والأخرى على بيئته العباسية الجديدة فإنّ الأندلسي كانت روافده ثلاثة: رافد التراث ـ الجاهلي والإسلامي والأموي، ورافد المعاصرة العباسي، ورافد البيئة الأندلسية الجديدة))[2].

من هذا المنطلق؛ تأتي أهمية اللون في الأدب العربي عموماً، والأندلسي خصوصاً، إذ يعمل على تقديم مدركات حسية ترتفع بأدائها إلى مستوىً متطلّب، يُبرز القيم الجمالية للنصّ من خلال تعدد أبعاده الدلالية، وانفتاحها على تجلّيات اللفظ اللوني الصريح، والموحيات اللونية، وظلال الألوان، وانعكاسات اللون، والضوء والنور.

(١) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، نقله عن الاسبانية: حسين مؤنس: ٤٧.
(٢) اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، د. أحمد مقبل محمد المنصوري: ٤٠.